الحلقة الحادية عشرة

حمزة شحاتة

ربما كان قولي عن مجمل حياة شاعر الشعراء، وأديب الأدباء.. وفيلسوف فلاسفتهم: حمزة شحاتة.. بأنها كانت تمثل لحن الافتتاح الجميل في نهضتنا الأدبية عند بواكيرها الأولى من مطالع القرن العشرين.. هو الأقرب والأدق إلى توصيف تلك المرحلة، التي شق غبار ركاكتها البلاغية، وتخلفها الفكري بداية الشاعر والأديب والمفكر الرائد الأستاذ محمد حسن عواد.. ثم ثنى عليه بعد حين من الزمن الأستاذ «حمزة شحاتة» بإبداعاته الشعرية والنثرية المذهلة..

فإذا كان الأديب والناقد الكبير الأستاذ عزيز ضياء، وهو المعاصر لتلك المرحلة.. قد قال عن حق بأن «العواد» كان أول من كتب شعراً يقرأه ويحفظه الناس.. فإن من العدل أن نقول بأن حمزة شحاتة كان صاحب تلك الألحان الشعرية الباذخة العذوبة التي سبق بها زملاءه، وعشقها الناس.. كل الناس.

لقد أزاح «العواد» بشعره الفكري وريادة التجديد فيه.. ستار التخلف جانباً، ليصدح «الشحاتة» فيما بعد بشعره الموسيقي الأخاذ الذي استهله برائعته الأولى: «سطوة الحسن» والتي قالها في عز شبابه:

«بعد صفو الهوى وطيب الوفاق
عز حتى السلام عند التلاقي
يا معافىً من داء قلبي وحزني
وسليماً من حرقتي واشتياقي
هل تمثلت ثورة اليأس في وجـ
ـهي وهول الشقاء في إطراقي
أي سهم به اخترقت فؤادي
حين سددتها إلى أعماقي
مُسرعاً في المسير، تنتهبُ الخط
ـوَ، فهل كنت مشفقاً من لحاقي
إذ تهاديتَ مُبْدلاً نظرة العط
ـف، بأخرى قليلة الأشواقِ
وتهيأت للسلام، ولم تفعل
فأغريت فضول رفاقي
هبك أهملت واجبي صلفاً منـ
ـك، فما ذنب واجب الأخلاقِ»

.. ثم برائعة روائعه الشعرية عن مدينة «جدة» التي شاءت ظروفه أن لا يولد بها، ولكنه سرعان ما عاد إليها طفلاً.. ليعيش فيها كما عاش أهله، وليدرس بها، ويُبتعث منها إلى «الهند» للدراسة أو العمل.. أو لهما معاً.. فلم يغادرها بعد ذلك اختياراً أو اضطراراً إلا ليعود إليها.. حتى في سنوات اغترابه في مصر التي امتدت به لستة وعشرين عاماً. لقد كتب قصيدته تلك عن

«جدة» بخيال فنان.. ومهجة عاشق، فلم يقرأها أو يسمعها أحد من الناس إلا وهن بها وبقائلها الذي جمحت به مشاعره وعواطفه نحو جدة.. حتى بدا له أن عقل العقلاء غريق في بحر هواها، وهو يناجيها قائلاً:

النهى بين شاطئيك غريق،
والهوى حالم فيك لا يفيق
ورؤى الحبّ في رحابك شتى
يستفز الأسيرَ منها الطليق
ومغانيك في النفوس الصديات
إلى ريها المنيع رحيق
إيه، يا فتنةُ الحياة لصب
عهده في هواك عهد وثيق
سحرته مشابه، منك للخلد
ومعنى، من حسنه مسروقٌ
كم يكر الزمان، متئد الخطو،
وغصن الصبا عليك وريق
ويذوب الجمال في لهب الحب،
إذا آب، وهو فيك غريق

لقد كان موسيقار الكلمة والإبداع هذا.. والذي أمضى نصف حياته القصيرة بين عامي ١٩١٠ و١٩٧٠م مغترباً في مصر: زاهداً في كل شيء. يائساً من كل شيء. وساخراً من كل شيء.. صاحب

حياة زاخرة منتجة مزدحمة في بداياتها وسنوات نضجها إلا أنها كانت مليئة على الدوام بالعواصف مزروعة بالرياح والأعاصير. المبدع فيه.. عاشق لـ «الكمال»، والفيلسوف فيه عاشق.. لـ«التجديد»، ولذلك بدا كما لو أنه فاجأ زملاءه ومجايليه وهو في مطلع العشرينات من عمره.. بقامته الشعرية الكاملة والناضجة: فكراً وصياغة.. إبداعاً وإمتاعاً.. ليتساءل الأديب الأستاذ محمد علي مغربي وهو أحد أصدقائه وزملاء مرحلته المقربين: «هل أخفى (حمزة) ما لا يرتضيه من بداياته حتى يظهر للناس بالصورة المشرقة التي أراد بها أن يواجه الناس»..؟

وهو ما تكرر.. على لسان الأستاذ عزيز ضياء الذي كتب عنه فيما بعد واحداً من أجمل كتبه: «حمزة شحاتة قمة عرفت ولم تكتشف».. وبدأه معترفاً بأن حمزة شحاتة «منذ عرفه عشاق الحرف والكلمة.. وهو قمة لا تدري كيف تكونت»..؟ ثم ظل يلح في تساؤله قائلاً: «أجد نفسي مضطراً أن أتساءل: متى؟ وكيف؟ أتيح له أن يبلغ هذه المرتبة التي نفترض أنه بلغها في العشرين»!!

إن طموحه غير المحدود، وطبيعته القلقة، ونزوعه الجارف نحو الكمال، وقدرته الاستيعابية الضخمة لكل ما يقرأ.. يضاف إليهم معركته الأولى والمبكرة مع أستاذه العواد حول مكونات الطبيعة من الماء والتراب والنار.. شكلت جميعها الأرض التي نصب فوقها سلالم صعوده إلى القمة: شاعراً وأديباً ومحاوراً فلسفياً جدلياً.. لا يشق له غبار.

ومهما قيل عن تلك المعركة الأدبية الراقية في بداياتها والتي دارت رمزاً بين الطرفين: بين «الليل».. وهو حمزة شحاتة، و«أبوللو» أو «الساحر العظيم».. وهو العواد.. ثم هبطت في ختامها إلى الهجاء الصريح وتبادل الشتائم وما فوقها بين الطرفين، إلا أنها أضافت مكانة لمكانة الأستاذ حمزة شحاتة.. وقيمة إلى قيمته.. جعلت منه في النهاية قمة شعرية وأدبية موازية ومواجهة لقمة العواد، لها الغلبة بأنصارها وجمهورها من المثقفين والعامة ممن أطربتهم ردود حمزة شحاتة الشعرية المفحمة ممن كانوا يتابعون سير تلك المعركة على صفحات «صوت الحجاز» أو على لسان الأديب الأستاذ عبدالسلام الساسي، الذي كان يتنقل بين معسكري «العواد» و«الشحاتة» وهو يحمل في حافظته ما لا تجيز الصحيفة نشره.

* * *

كانت حظوظ الأستاذ حمزة شحاتة الإدارية وهي معيار النجاح مع النفس وبين سواد الناس.. تقل كثيراً عن حظوظه الشعرية والأدبية الساطعة اللامعة، وهو ما جعل من تلك الحظوظ الإدارية.. موضع تندره وسخرياته هو وصديقه الحميم الشاعر الكبير الأستاذ أحمد قنديل في خلوة أحاديثهما، ثم في أزجالهما عن «الفلس» و«النحس» و«قلة البخت»، فبعد أن عاد الشاب حمزة شحاتة من بعثته إلى الهند تم تعيينه سكرتيراً للمجلس التجاري بجدة الذي كان يرأسه الوجيه الشيخ سليمان قابل أحد عين أعيان جدة.. ولكن ذلك لم يرقه فتركه إلى الأعمال الحرة ليؤسس مع

شقيقه «شركة السلام» للسيارات، ثم ترك ذلك ليذهب إلى مكة بعد عودته مع كوكبة المثقفين من الرياض ليعمل سكرتيراً لنجم الإدارة الحجازية آنذاك: الشيخ محمد سرور الصبان الذي كان يعمل - بدوره - مستشاراً أو مديراً عاماً لوزارة المالية، ولكن ذلك العمل لم يُرض طموحه.. فغادره بعد عام.. ليعود إلى جدة وإلى العمل مرة ثانية مع شقيقه في التجارة، ولكنه سرعان ما غادر ذلك أيضاً.. في رحلة اجتماعية أدبية وليست تفقدية «بالتأكيد كما قال الأستاذ المغربي في كتابه إلهام: أعلام الحجاز».. إلى الجنوب.. إلى جيزان وأبها ليزور صديقاه «عبدالعزيز جميل» مدير ماليات جيزان، و«طلعت وفا» مدير شرطة أبها.. ومنطقتيهما، ليكل إليه معالي الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية بعد عودته.. إدارة سيارات النقليات الحكومية، فلم يبق في ذلك العمل إلا بضعة شهور.. حيث انتقل إلى العمل في ديوان المحاسبة بالوزارة نفسها..

كانت هذه التنقلات المتسارعة.. تعكس حالة قلقه مع نفسه من جانب.. أمام طموحه الذي لم يجد في كل ما مر به من وظائف وأعمال ما يلبيه.. على الجانب الآخر، لتدعوه «جمعية الإسعاف الخيرية» التي أقامها الشيخ محمد سرور صبان.. في ختام موسمها الثقافي الثاني وفي الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة من عام ١٣٥٩هـ الموافق للسابع من يناير من عام ١٩٤٠م.. وفي آخر أفضل مواسم حج قبل أن تشتد معارك الحرب العالمية الثانية.. لإلقاء محاضرة يختار هو موضوعها وعنوانها، فكانت فرصته الذهبية

الثانية.. بعد فرصة تمعركه أدبياً وشعرياً مع «العواد» والتي خرج منها مظفراً.. ليعد محاضرته الشهيرة المدوية: «الرجولة عماد الخلق الفاضل»، التي كتبها في مائة وعشرين صفحة، وألقاها في أربع ساعات، وقوطعت بالتصفيق ثلاثين مرة.. واستمع إليها جمهرة المثقفين والمتعلمين في العاصمة آنذاك.. حتى فاض بهم مبنى الجمعية إلى الشوارع والساحات المجاورة.

كانت المحاضرة: علماً وفكراً.. أدباً وفناً.. تاريخاً واجتماعاً.. سياسة وأخلاقاً، ودعوة لـ «المثالية» بإطلاقها.

كانت بحق بيان جدارة عن شخص وفكر وقمة قائلها... لكنها كانت في ذات الوقت المدخل لـ «معركته الثانية» غير المعلنة مع مؤسس الجمعية، ونجم الإدارة وراعي الأدب والأدباء محمد سرور الصبان نفسه.. ليديرها بالوكالة عنه الصحفي الكبير الأستاذ عبدالله عريف عندما استقبل المحاضرة التي أجمع على الترحيب بها كل من استمع إليها.. بمقال ظاهره الرحمة «ضريبة الإعجاب» وباطنه العذاب.. إذ إنه قال بـ «أن انصياع الجماعة واندفاعها أقوى منهما في الفرد».. وبما يعني أن النخب لا تريان الرأي ذاته، وقد أدرك شاعرنا الغمز واللمز اللذان حفلت بهما تلك المقالة، ليرد عليها بست مقالات.. جاءت بعنوان واحد هو: «بين النقد والجمال».. واستغرق نشرها شهرين من العام التالي.

لقد شعر «الشحاتة» بأن محاضرته الضخمة والرائعة بكل مقاييس زمانها، لم تلق عند ذوي القول والفعل ذات القدر من

الحفاوة، فطواها.. وطوى جوانحه على ما سببته له من آلام نفسية.. حتى أنها لم تظهر بين محاضرات الجمعية عندما قُدر لتلك المحاضرات أن تطبع وتوضع في خدمة القراء.. ليصور ما حدث في واحدة من أجمل وأبلغ قصائده.. قصيدة «حيرة».. قائلاً:

تسائلني: كيف انتهيت إلى الرضى
وما علمت أن العزائم تَصدأُ
أهبت بعزمي، فاستجاب، فردني
لسالف أطواري، حياءُ ومبدأُ
لأمرٍ رأى ذو الرأي أن حثالة
من الناس أقضى للمراد وأكفأُ
تشبهتُ بالساعين عزماً وأهبة
فأخرني إن عجلتُ وأبطأوا
وثقَّلت من خطوي أناة وحكمةً
فقال خَلِيٌّ: شد ما تتلكأوا
هو الرزق. قد لا يبلغ القصدَ جاهدٌ
مصيبٌ، ويلقاه، ولم يَسْعَ مخطئُ

.. إلى أن يقول:

وقد حظي اللاهون بالصيت والغنى
فشادوا، وسادوا، وانتشوا، وتبوأوا
وعشت على ما كان، طالبُ غايةٍ
من الوهم، لا تنأى ولا تتهيأوا

ليصمت بعد ذلك خمس سنوات متتالية.. يتأمل فيها ويفكر فيما عليه أن يفعل.. إلى أن أخذ قراره بالرحيل إلى مصر في عام ١٩٤٤م بعد أن أخذت تظهر في الأفق مشاهد انتصار الحلفاء على دول المحور، ولكنه.. وقبل الرحيل أطلق آخر سهامه عبر قصيدته الفريدة بحق والتي جاءت بعنوان «نهاية» والتي استهلها.. بسؤاله العبقري إلى صديقه اللدود محمد سرور الصبان:

أخير سبيليك التي تتجنبُ

وأدنى حبيبك الذي لا تقربُ؟

ثم واصل بوحه قائلاً:

صبرت وما صبر امرئٍ لم يعدله

على يأسه فيما يحاول مذهبُ

أيُقدم والإقدام خطة يائسٍ

رأي أن ضيق الموت للنفس أرحب

أيُحجم؟ والإحجام فسحة ساعة

سيعقبها عمر كريه معذَّبُ

* * *

في مصر الأربعينات.. وعلى ضفاف النيل.. وفي وظيفة متواضعة هي «محاسب» بإدارة البعثات السعودية اضطر إليها ولم يبق فيها.. أخذ يتنفس جراحه التي قدم بها:

هَدَرتُ شعوري حين صعَّدتُه شعراً

وأشفي لنفسي أن أفجره جَمراً

فما لي وقد عِفتُ السلامة موردَاً
وأعرضت عن أسباب طالبها كِبراً

.. إلى أن قال عن نفسه صراحة:

تطَلَّب من دنياه عدلاً فَسُوفَتْ
حكيمٌ، فلا عجزاً أقام ولا صدرا
فأنفق في ظل الخمول حَيَاتَه
وعاش على جَدْب الحقيقة مضطرا
ورب «مجدٍ» لم يَدَع بابَ حيلة
إلى اليسر، أفنَى جُهدَه، فجنى العُسرا
وحيٌ من الأحياء، غاية قَصدِه
على عيشه ألا يجوعَ ولا يعرى
تُساق إليه من غرائب رزقِه
سحائبُ، فاضت حوله ديَماً غُزْرَا

إلا أنه ومع أحزانه الدفينة.. ظل يكتب ولا ينشر عن مصر وأهلها.. وعن البيت العتيق وساكنيه وهو يتفاعل مع عاطفته ووطنيته التي اشتد توقدها في سنوات غربته.... لتبقى قصيدتاه عن: فتاة «بولاق» التي أحبها، و«الشجرة» التي تتحدث لأختها، مثالين عن جمال وكمال ما كان يكتبه من روائع شعرية في تلك المرحلة من مطالع أربعيناته، فها هو يقول لفتاته:

يا أنتِ، يا نبعَ أحلامي، ومُلهمتي
سِرَّ الجمالِ تجلى، في مزاياك

يا هاتفاً من ضمير الغيب أشرَق في
قلبي بدعوته، شمساً، فلَبَّاكِ
ما النيلُ، ما غيدُه، ما الشط مزدهياً
بهن إلا إطـار حَـوْلَ مَغنـاكِ
لو يسألُ الدهرُ عن فتَّانةٍ بلغت
حد الكمال، لما استثنى، وسَمَّاك
يا فجرُ، يا بدرُ، يا زهرَ المنى ابتسمَتْ
يا خمرُ، يا جمرُ، في إحساسي الذَّاكي
ما كنت قَبلَكِ إلا صادحاً صمتت
بـه الهـمـوم، فلمَّا لُحـتِ غَنَّـاكِ

.. وهاي هي شجرته تتحدث إلى أختها قائلة:

أي عيش هذا الذي نحن صالوه هوانا وفاقة وشنارا
أخرست فيه دعوة الحق والعز فعادا ضراعة وصغارا
وغدا راجِحُ النهى فيه منقوصاً وحُر الضمير يكدى عثارا
قد ظمئنا والماء ملء السواقي، واهتدى غيرنا وعشنا حيارى

لكن الوطن يتذكره.. عندما دعاه الشيخ محمد سرور الصبان للعمل «نقيباً للسيارات» في النقابة التي أنشأتها وزارة المالية عام ١٣٧٢هـ الموافق لعام ١٩٥١م للتنسيق بين الشركات العاملة في نقل الحجاج، فقدم إلى مكة.. ولكن إقامته في ذلك العمل لم تطل إلا لبضعة أشهر ليعود بعدها إلى القاهرة وهو في الرابعة والأربعين

من عمره أشد يأساً وقنوطاً.. وقد اتخذ قراراً بأن يطلق الشعر والكتابة وإلى الأبد، ولكن «الشاعر» فيه لم يستسلم لقراره.. فكان يكتب القصيدة وقد يُسمعها لأحد من زواره ثم يقوم بتمزيقها، وقد أدرك ذلك أصدقاءه فكانوا يأخذون القصائد منه بعد تلاوتها ليقومون بإخفائها عنه.. وقد أنقذ ذلك التصرف الذكي منهم عدداً لا بأس به من القصائد، كما أن «الكاتب» فيه.. لم يستطع أن يصمت، فعاد يتسلل إليه عبر «الرسائل» الواجب كتابتها لابنته البكر وصديقته «شيرين» التي كانت تقيم في جدة والتي تحولت فيما بعد إلى كتاب بعنوان إلى «ابنتي شيرين».. ثم اتسعت دائرتها لتشمل أصدقاءه الأقدمين: الضياء والقنديل.. ومحمد عمر توفيق، وقد تطورت مواضيعها من «الخاص» إلى «العام».. لتتحول إلى فكر وفلسفة عن الحياة والإنسان والمصير.. وهي التي تحول ما كان منها إلى صديقه وزير الوزارتين محمد عمر توفيق إلى كتاب بعنوان: «الرسائل».. ما أجمل الشحاتة، شاعراً وناثراً وكاتب حكم، أهدتها إليه تجربته العميقة الدامعة.. واستخلصتها براعة حكمته.

* * *

أخذت سنوات صمته واعتزاله ونكرانه لذاته ولكل ما أنتج وأنجز.. تقضم صحته رويداً.. رويداً، وقد ساعدت قلته التي تكابر عليها على ذلك.. ليضعف بصره تحت معاول مرض السكري الذي أصابه.. حتى كف بصره تماماً أو كاد.. ليموت وهو في الستين من عمره وفي أفضل سنواته عطاءً لولا زنزانة الاعتزال التي اختارها أو أرغم نفسه على البقاء فيها، لتصدق قولته في إحدى رسائله

لـ «التوفيق»: «إن الحياة تسمم طويل الأمد لكل من يحمل صك آدميته في يده».. ولتتأكد حكمته الساخرة: «عندما يفشل الطبيب.. تقع المسؤولية على القدر»..!!

ولكن موته المأسوف عليه.. كان بداية حياة جديدة لأدبه وشعره وأقواله المأثورة ومِزَقِ قصائده.. ورحلة جديدة لشخصه واسمه ومكانته مع المجد والشهرة والأضواء التي تعالى عليها وسخر منها طوال سني حياته. فقد أصدرت له «دار الشعب» المصرية - بعد خمس سنوات من وفاته - أول ديوان له: «شجون لا تنتهي».. الذي ضم ثلاثة عشر قصيدة من عيون شعره، ثم قامت «دار المريخ» بالرياض لصاحبها الأديب الفنان الأستاذ عبدالله الماجد.. بعد عامين من ذلك التاريخ بتجميع ونشر كتابه الفلسفي الرائع.. والذي كان مفاجأة لجيلنا: «حمار حمزة شحاتة»، ثم تحمل الأمير عبدالله الفيصل - بعد أحد عشر عاماً - نفقات طباعة ديوانه كاملاً إلا من بعض القصائد، ثم قامت «تهامة» بتجميع ونشر بقية أعماله في ثلاث كتب هامة: «الرجولة عماد الخلق الفاضل».. وهي المحاضرة الجهيرة التي أعطته بقدر ما سلبته، وكتاب «إلى ابنتي شيرين».. الذي حمل رسائله الجادة والساخرة لابنته، وكتاب «رفات عقل».. الذي قدم أجمل وأعمق اختصار لحياته وفكره الإنساني.

وهكذا.. مضى حمزة شحاتة جسداً إلى القبر.. وارتفع اسماً إلى سماء الخلود، ليكون أحد أشهر شعرائنا وأدبائنا في القرن العشرين، الذي عاش حياته مهموماً بها.. ومات غير راض عنها.